

الالتزام فكرة ذاتية
اليوم حول السلوك أو
الطابع المثالي للأدب ،
بجيت يكون ذا رسالة
منبثقة عن مقتضيات الحياة
الاجتماعية ؛ ويقيني بأنها خير

ادبنا الملزم

بقلم محمد وهيب

إذ انها ليست بعدد فيما
يوحيه النتاج الأدبي قضية ؛
وإذا تطرق إليها الوصف
في النادر ، لم يعط عنها غير
صور زائفة . فمنسدا الذي
عني حتى اليوم بموضوع

التأخر العربي ؟ إن الشواهد تشير الى ان هذا الموضوع ليس له
ان يفوز بشيء من العناية ، فالتأخر العربي محتجب عن الوعي ،
او على الأصح ، الوعي محتف في ظلال هذا التأخر . وليس
أدل على ذلك مما سمعناه في الآونة الأخيرة من اديب معروف
بانه من جهابذة الأدب العربي وشيوخه ، لا يهمني ذكر اسمه ،
ولكن يكفي ان اسمه يُقرن عادة بعبارة « الكاتب الكبير »
على نحو ما تطلق الألقاب العلمية : وقف هذا الكاتب الكبير
في إذاعة القاهرة ، وجعل يعلق على تصريح لأحد المستشرقين
حول موقف العرب من المدينة الحديثة ، قال فيه ما معناه
« أن العرب بمعتقداتهم وتقاليدهم يقفون في وجه المدينة » .
وبعد ان أكد اديبنا ان ما يقصده ذلك المستشرق ومن على
شاكلته من الغربيين بالمدينة ليس إلا « الاستعمار » ، وان ما
يعنونه بالوقوف في وجه المدينة إنما هو « التمرد على الاستعمار »
الذي يُبديه العرب ، بعد ان أكد هذا الاستنتاج الواهي الذي
لا رابطة فيه ، اذ لا شأن للمدينة بالاستعمار ، ولئن ادعى
الاستعمار نشر المدينة ، فليس معنى دعواه ان تصبح المدينة
هي اياه ، قال بصوته الرنان وبجلء فيه ، وكأنه يستشعر ما
ستحدث به عن قولته الأجيال القادمة بالفخر والثناء
والامتنان : « اذا كان هذا هو الواقع حقاً ، فحبذا هذا
الوقوف في وجه المدينة ، ونعم ما هو » ، ثم راح يستطرد في
تفنيد الاستعمار ومهاجمته ، وهكذا استطاع مرة واحدة ان
يجيب عن نفسه حقيقة الموضوع بهذا الحظ الأدبي الذي لا
طائل تحته ، مع ان المستشرق اراد ان يعني ان العرب لم
يضموا المدينة الحديثة ولم يتمثلوها ، وهو ادعاء وجيه جدير
بالدرس والتأمل ، وكان الأخرى بأديبنا ان يحاول الافادة منه
بوصفه تنبيهاً ولفت نظر ، ان لم تقُدْ بصيرته من تلقاها الى
مثل فحواه ، بدلاً من اعتبار غرضه مجرد التشهير ، ومن انفاق
الوقت في الهجاء الذي لا يستطيع النيل من الحقائق .

وموقف هذا الأديب ليس الا عبثة من كثير ، بحيث ان

سبيل يكتسب به الأدب قيمة حقيقية ، على ان يكون هذا
الالتزام كاملاً ، فلا يقتصر على مجال الوصف والتحليل ، كما
درج اعتبار الأدب في معظم الظروف ، ولكن يتعدى ذلك
الى مهمة التقييم وتعيين المبادئ والتصاميم الواجب الأخذ بها .
فلو اكتفى الأديب بالتصوير ، لما كانت مهمته بذات موضوع ،
ولما اختلف عمله عن عمل آلة التصوير السليبي ؛ إذ الوصف
والتصوير وسيلة لا غاية ، فما قيمتهما إن لم يهدفا الى التعليل ثم
التقييم ؟ وإذا اكتفى الأديب ، وهو رجل الفكر ، بالقيام
بوصف الحياة ، فلمن هو يصف ، ولمن يتروك مهمة استخدام
الصور التي يقدمها من اجل تحقيق عمل التقييم

تسود فكرة الالتزام الأدبي في عالمنا العربي ، وليكنها
إزاء ما يغير هذا العالم من اعمال ادبية ، تظل بتيمة ، لا صدى
حقيقياً لها ، ولا ظل لها في حيز الواقع .

إن نظرة واحدة الى الحياة العربية ، مهما تكن خاطفة ،
تنبئ عن وجود حالة شاملة وبارزة بروزاً فاقعاً ، هي التأخر
الذي يصبم كافة مجالي هذه الحياة . ومنطق الالتزام يقضي بان
تكون هذه الحالة هي الموضوع الرئيسي للالتزام : فتأخر
العرب هو الموضوع الأصيل الذي يجوز حقاً وصفه بانه من صميم
الحياة العربية ، والذي ينبغي ان تدوب في معالجته افلام
الكتّاب وتبرى . على ان ما نلسه في النتاج الأدبي ، هو ان
الاتجاه العام في غير هذا السبيل ، بل انه على النقيض منه في
اكثر الأحيان ، إذ يعمل على هدهدة الأوضاع الراهنة وإطرائها ،
وتجاهل كونها ذاتها مشاكل في الضميم ، لا بل أم المشاكل .
ويقوم اتجاه الهدهدة وسط اتجاهات متعددة لاغية ، تتركز في
معنى التجاهل التام للالتزام ، وما ينبغي ان يكون به الالتزام ،
ويدوي فيها الفكر على مومياء فنون الأدب المخططة من غزل
وتشبيب ، او سرد لوقائع من وحي الصدفة والمطابقة في قصص
خاوية ، او تفلسف صياني حول توافه الأمور .

اما قضية تأخر العرب ، فانها لا تحظى حتى بمجهود الوصف ،

موضوعاً جوهرياً خطيراً كموضوع التأخر العربي ، تنبثق خطورته عن اتصاله الوثيق بكيمان العرب ومستقبلهم ، قد غدا بفعل إهماله ، لا بل الاصرار على تجاهله ، معضلة مضاعفة الخطورة . ويزيد من تعقد هذه المعضلة أيضاً ما يبديه بعضهم بين الفينة والفينة من آراء حول وجود تأخر عربي لا يدرون كيف يحددون مفهومه، والتحديد هنا لب الموضوع، ولكنهم يضربون اخماساً لأسداس، ويُتمون بذلك طمس الحقيقة .

يتحدث بعض هؤلاء عن النقص في المتعلمين وعن ضرورة اقتباس العلوم ونشرها ، وحملة الشهادات العلمية فينا كثير ويزيدون باطراد ، في حين ان التأخر قابض مقيم . ويظن بعضهم في الكلام عن فساد الاخلاق ووجوب اصلاحها ، مع ان التقاليد الاخلاقية المحلية التي ينادون بتعزيزها مصونة على العموم وفق ما يسمح به الامكان . فقيم الحديث إذن ، وأين اصلته ؟ وهل في هذا ما يوحي بانه ضرب من الجذ ، او انه وليد ايمان برسالة ؟

الواقع ان مفهوم الرقي كضرورة يقضي بان يكون واجبا لا ان نتعلم اليوم ، ولكن ان نتعلم الايمان بالقيم التي انبثقت عنها العلوم ، ولا ان نتفقه بالقواعد والسنن الاخلاقية ، ولكن ان نتفهم ونؤمن بالقيم التي استندت اليها هذه القواعد والسنن في جميع العصور . ما قيمة المتعلم الذي ينصرف بعد تلقي ثقافته الى وقف استخدام هذه الثقافة على شؤون معيشته الخاصة ، ابي شؤون الربح التجاري ؟ وما قيمة الرجل الاخلاقي الذي ينحصر سلوكه في المطابقة الشكلية مع القواعد الماثورة التي لا تتصل في حد ذاتها بغير احوال خاصة من الحياة ضئيلة العدد ، في حين انه ينتهك مفهوم الأخلاق في ما عدا هذه الأحوال ، لجهله الاصول والجذور التي صدرت عنها القواعد الماثورة؟ ان ما يبدو انه لم يزل مجهولاً لدينا ، هو ان المتعلم يظل جاهلاً ما لم يتعلم الايمان بالحقيقة كحقيقة مطلقة، والسعي اليها بايمان واخلاص ، وأن السلوك يبقى بعيداً عن الصفة الاخلاقية ما لم يستوح القيم التي انبثقت عنها القواعد ، وليس القواعد ذاتها . لنذكر ان قانون التطور قد جعل القواعد الاخلاقية عرضة للتبدل والزوال ، وحتى الحقائق العلمية في تحول مستمر ، في حين ان الذي يصمد ويدوم ثابتاً هو القيم التي نهضت وتنهض ابدأً عليها الاخلاق والعلوم .

إن حقيقة فقرنا ليست في المتقنين بالعلم وعددهم ، ولكنها

في القوة الروحية . إنها ليست قضية مقدار ، بل قضية نوع . وعبئاً نحاول تغطية فقرنا هذا بالاختصار على زيادة عدد المتعلمين ، خصوصاً وأن الشواهد الماثلة تدحض حجة هذا الاتجاه السطحي ، إذ اننا بعد عشر سنوات من التحرر السياسي أخذنا فيها بهذا الاتجاه ، لم نلمس في جيش المتعلمين والمتخصصين قوة روحية تدمغه ، ولا قوة روحية تصدر عنه الى هذه الشعوب الراضحة تحت عبء الرجعية . ذلك الى ان ما نحتاجه لا يُدرّس في المدارس ، إنه ليس تعاليم ونصوصاً تُلقى في الأذهان للحفاظ والاستظهار ، وهوذا شأنه ايضاً عند الأمم الراقية ؛ إنما هو روح تنبث في النفوس « عبر » الثقافة والعلوم ، وتشكل عاداتٍ وتقاليد ومثلاً تنطبع في أبسط امور الحياة اليومية ، وتنتقل من جيل الى جيل على نحو ما تفعل الوراثة ، بحيث ان الفراق بين ما ندعوه هنا بالخاصة والعامّة تمنحني امامها، ليظل منها فارق وحيد لا يتصل بهذه اروح ، بل بالمادة العلمية من حيث الكم والمقدار فقط . ونستطيع ان نأخذ مثلاً على هذه الروح إذا قارنا بين رجلٍ أُسي من البلاد « السكندنافية » ورجل أمي عربي ، أو بين عالمٍ غربي وبين آخرٍ مثله - أو بالأحرى ، ائله - عربي ؛ فمن مراقبة المثل الأعلى والأحكام التوجيهية عند كل من هؤلاء ، بل من نظر أنفه تصرفاته الخاصة ، تتجلى لنا شقة الاختلاف ، وسعة البون ، كما يتضح لنا ان العلم والفن والأخلاق ليست كل شيء ، وأن الاصل والاساس إنما هو في روح العلم وروح الفن وروح الاخلاق ، التي تحدد جميعاً روح الرقي .

والذي يبدو انه العنصر الأول في تكوين روح الرقي هذه، هو تعزيز الغيرية وإنكار الذات على حساب الأثرة التي تمهر نفسية الرجل البدائي . فمن الراهن ان العلم في جوهره لا يتعرف على الأثرة مطلقاً ، فهو لا يعرف تبعية لانسان او وطن او زمان ، ولو كان لهذه التبعية ان تكون لما كان ، ولما كان الرقي . لذا نجد انه بفضل هذا العنصر الأساسي ، تتحول المثل العليا من حيز الانطوائية الفردية ، الى مجال الايمان بقيمة المجموع ، وتتفقت من قيود الجسد لتعمل للقيم المطلقة ، بحيث يفردو بمكنة للعالم ان يصدف عن استخدام علمه في منفعة شخصه فقط ، ليلج باب التضحية في سبيل المجموع حتى مجباته ، كما يفعل اليوم ، في عصرنا الموسوم عنوة بالمادية ، رجال في مستقبل العمر وفي ظروف اجتماعية بمتازة ، هناك . . في عالم الغرب . ولا سبيل

يتم تقدم العلم ، بفضل مؤازرة عدد كبير من الجهود الفردية ، التي يجريها مجتاهدون ، هم مع اتحادهم الكلي لانجاز عمل مشترك ، يختلفون فيما بينهم ، بميولهم

التميز في العلم

بقلم : لوسيه روبرغ علي

ان المختبر هو الاطار العادي لاعمال الاختباري ، وعندما تجبره مادة اجتهاده ، ان يلاحظ او يختبر خارج مختبره ، فهو دائماً ملزم على التجهيز بأدوات القياس

واستعداداتهم ، ووجهات عقليتهم ، وطرق عملهم المختلفة و احياناً المتعاكسة .

ويمكننا ، في اول الامر ، ان نفرق بين النظريين (les théoriciens) والاختباريين (les expérimentateurs) بين اولئك الذين يميلون خاصة الى الافكار المطلقة ، ويبحثون عن مركبات المواضيع (synthèses) والنظرات الاجمالية الجريئة تارة ، والمغامرة طوراً ، وبين هؤلاء الذين في تطاحنهم مع صعوبات مادية بلا هوادة ولا ملل ، يطلبون الى الملاحظة والاختبار ، ان يفشيا لهم تدريجياً ، اسرار الطبيعة .

تناقض قائم بين هذين النوعين من الباحثين . فالنظري ، هو في الاصل ، حليف التفكير والتأمل . مسرح نشاطه الاعتيادي غرفة عمله ، كما ان تفكيره اكثر تجريبياً من الاختباري ، وقد يلجأ بكل طبيعة خاطر ، الى النظريات الرياضية واساليبها التي تستعملها . بينما نجد على عكس ذلك ،

واجهزة مختلفة تنشىء حوله جو المختبر . وهكذا ، ولاتصاله الدائم بالحقيقة الفيزية ، ومقاومته لجميع الصعوبات التي تثيرها إيضاحات النصوص الاختبارية ، والشك الملازم في ان يتلافى الاخطاء القياسية ، والشروح المتعسفة ، يتقدم الاختباري بحكمة ، رافضاً على العموم ان يمنح ثقته الوجهات النظرية ، غير طالب من الحساب إلا الاستعلامات التي يراها ضرورية موجبة . وهو إذا ما لجأ الى التصورات النظرية ليدبر اجتهاده ، فعالباً ما يكون ذلك في قوالب بسيطة نوعاً ، كما كانت الحال سابقاً عند فاراداي (Faraday) . قوالب ، قد تضحك احياناً النظريين ، المولعين بالضبط والتدقيق . كما انه بالعكس ، كثيراً ما يجد الاختباري ايضاً عمل النظري ، جد صناعي ، وجد بعيد عن القدرة على ان يأتي بتفصيل دقيق لتشابك الاحداث الملاحظة .

ولكن مع ذلك ، وُجد في الماضي ، ويوجد ايضاً في الحاضر ، علماء هم في آن واحد ، اختباريون بارعون ، ونظريون

تتصل اذناها ببيئته المحلية المسماة بالوطن ، وتحيط اعلاها بالوجود الانساني العام ، تحتم عليه ان لا يجهد عن ربط مجهوده بكل من مشاكل أمته ومشاكل النفس الانسانية وما يجري بينها من مسائل اخرى يثيرها الفكر الحر ، وذلك في نطاق الزمن الذي يعيش فيه . فليس له ان يُجمل مهمته الى مجرد صناعة أفاظٍ يُسود بها الورق الابيض ، بحيث يفضله عندئذ اي صانع « أشياء » كصانع الالبسة او الحلوى او التحف الأثرية ، لأن حقيقة حرفته التي أداتها الفكر وموضوعها الانسان في شتى ظروف وجوده ، إنما هي صناعة القوة الروحية ، ولأن مدى نجاحه في هذه الصناعة هو الذي يحدد معنى حرفته .

من معين هذه الشروط يستمد الأدب قيمته ، وبالاستجابة لها فقط يكتسب صفة الالتزام ، ومن ثم القوة . لذا ، لسنا ندري كيف نصنّف في مجال هذا الاعتبار ، أدبنا العربي المعاصر .

محمد وهي

الى إنكار أنه بغير هذا العنصر لا رجاء في حدوث الرقي ، إذ لا أمل في صدور اية قوة روحية عن رجال العلم الناضب ، بل انه بغير هؤلاء قادر على ابداع قوة روحية فعالة ، تكون بدورها سبباً في إحداث النشاط العلمي وتحقيق الرقي المتكامل .

وهكذا نرى كيف ان للعجب ان يمتلكنا بعنف وقوة ، حين نسمع بكتّاب يبغون الالتزام ، فلا يجدون غير الاستعمار او نحوه كموضوع للتناول يبذلون فيه الجهد دون جدوى حقيقية ، مع ان الاستعمار قد جلا عن البلاد او هو في طريق الزوال ، في حين ان ما ظل راسخاً فيها ، وما يجدد تأخرها ويمهد الأسباب لعودة النفوذ الأجنبي ذاته او بقاءه ، هو استعمار الاثرة في النفس ، واستعمار السطحية في الفكر ، وكلاهما في الشكل والفاعلية سواء إن لم نقل صنوان .

إن للأديب رسالة مقدسة في الحياة ، ليس له ان يشوها ويضع من قدرها بتجاهل الواجبات الاصيلية التي تلقها على عاتقه . وهذه الرسالة القائمة في حلقات متضامنة بعضها في بعض ،